تلحظ أن كل هؤلاء الرسل[1] قالوا : ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)﴾ [الشعراء] عدا إبراهيم وموسى عليهما السلام لم يقولا هذه الكلمة ، لماذا ؟

قالوا : لأنك حين تطلب أجراً على عمل قمتَ به لا يكون هناك ما يُوجب عليك أنْ تعمل له مجاناً ، فأنت لا تتقاضى أجراً إنْ عملتَ مثلاً مجاملةً لصديق ، وكذلك إبراهيم - عليه السلام - أول ما دعا إلى الإيمان دعا عمه آزر ، ومثل هذا لا يطلب منه أجراً ، وموسى عليه السلام أول ما دعا دعا فرعون الذى احتضنه وربَّاه فى بيته ، ولو طلب منه أجراً لقال له : أىّ أجر وقد ربَّيتك[2] وو .. إلخ .

الآية الأخرى في الاستثناء هى قوله تعالى : ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ ..(٢٣)﴾[الشورى] فكأن المودة فى القربى أجر لرسول الله ﷺ على رسالته ، لكن أىُّ قُرْبى : قُرْبى النبى أم قُرْباكم ؟

لا شكَّ أن النبى الذى يجعل حُبَّ القريب للقريب ورعايته له هو أجره ، يعنى بالقُرْبى قُرْبى المسلمين جميعاً ، كما قال عنه ربُّه عَزَّ وجلَّ : ﴿النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ..(٦)﴾ [الأحزاب]

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا (٥٨)﴾

---

(١) - قالها نوح فى : (يونس : ٧٢) ، (هود : ٢٩) ، (الشعراء : ١٠٩) .
- وقالها هود فى : (هود : ٥١) ، (الشعراء : ١٢٧) .
- وقالها صالح فى : (الشعراء : ١٤٥) .
- وقالها لوط فى : (الشعراء : ١٦٤) .
- وقالها شعيب فى : (الشعراء : ١٨٠) .

(٢) ورغم أن موسى عليه السلام لم يطلب منه أجراً ، لا مالاً وملكاً ولا غيره إلا أن فرعون امتن عليه بأنه الذى رباه ، فقال : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء] .

الحق - تبارك وتعالى - يُطمئن رسوله ﷺ : يا محمد لا تهتم بكثرة الكفار ومكرهم بك وتعاونهم مع شياطين الإنس والجن ؛ لأن هؤلاء سيتساقطون ويموتون ، إما بأيديكم ، أو بعذاب من عند الله ، وعلى فَرْض أنهم عاشوا فلن تغلب قوتُهم وحيلُهم قوة الله تعالى ومكره ، وإنْ توكلوا على أصنام لا تضر ولا تنفع ، فتوكل أنت على الله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ .. (٥٨) ﴾ [الفرقان]

والعاقل لا يتوكل إلا على مَنْ يثق به ويضمن معاونته ، وأنه سيوافقك في كل ما تريد ، لكن ما جدوى أنْ تتوكل على أحد ليقضي لك مصلحة ، وفي الصباح تسمع خبر موته ؟

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد أن ينصح خَلْقه : إنْ أردتَ أنْ تتوكل فتوكل على مَنْ ينفعك ولا يتركك ، على مَنْ يظل على العهد معك لا يتخلى عنك ، على مَنْ لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . هذه هي الفطْنة .

لكن ما جدوى أن تتوكل على مَنْ ليس فيه حياة ؟ وعلى فرض أن فيه حياةً دائمة فلا تضمن ألاَّ يتغير قلبه عليك .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ .. (٥٨) ﴾ [الفرقان] سبِّح يعني : نزِّه ، والتنزيه تضعه في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] فلله وجود ، ولك وجود ، لكن وجوده تعالى ليس كوجودك ، ولله صفة ولك نفس الصفة ، لكن صفته تعالى ليست كصفتك ، ولله تعالى فعل ، ولك فعل ، لكن فعله تعالى ليس كفعلك .

إذن : نزِّه الله في ذاته ، وفي صفاته ، وفي أفعاله عن مشابهة الخلْق ، وما دام الحق سبحانه مُنزَّهاً في ذاته ، وفي صفاته ، وفي أفعاله ، فأنت تتوكّل على إله لا تطرأ عليه عوامل التغيير أبداً .

وهذا التنزيه لله تعالى ، وهذه العظمة والكبرياء له سبحانه فى صالحك أنت أيها الإنسان ، من صالحك ألاَّ يوجد لله شبيه ، لا فى وجوده ، ولا فى بقائه ، ولا فى تصرُّفه ، من صالحك أن يعرف كل إنسان أن هناك مَنْ هو أعلى منه ، وأن الخَلْق جميعاً محكومون بقانون الله ، فهذا يضمن لك أن تعيش معهم آمناً ، إذن : من الخير لنا أن يكون الإله ليس كمثله شىء ، وأن يكون سبحانه عالياً فوق كل شىء .

ويجب عليك حين تُنزه الله تعالى ألاَّ تُنزِّهه تنزيهاً مُجرّداً ، إنما تنزيهاً مقروناً بالحمد ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ..(٥٨)﴾ [الفرقان] فتحمده على أنه واحد لا شريك له ، ولا مثيلَ له ، وليس كمثله شىء ، ففى ظل هذه العقيدة لا يستطيع القوىُّ أن يطغى على الضعيف ، ولا الغنى على الفقير .. إلخ .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨)﴾ [الفرقان] نقول : كفاك فلان . يعنى : لا تحتاج لغيره . كقولنا : حَسْبُك الله يعنى : كافيك عن الاحتياج لغيره ؛ لأنه يعطيك كُلَّ ما تحتاج إليه ، ويمنع عنك الشر ، وإنْ كنت تظنه خيراً لك .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقيم لك (كنترولاً) يضبط حياتك ويضمن لك السلامة ، لذلك حين تدعو الله فلا يستجيب لك ، لا تظن أن الله تعالى موظفٌ عندك ، لا بُدَّ أن يُجيبك لما تريد ، إنما هو ربك ومتولٍّ أمرَك ، فيختار لك ما يصلح لك ، ويُقدِّم لك الجميل وإن كنت تراه غير ذلك .

وقد ضربنا لهذه المسألة مثلاً بالأم التى تكثر الدعاء على ولدها ، فكيف بها إذا استجابَ الله لها ؟ إذن : من رحمة الله بها أنْ يردَّ

دعاءها ، ويمنع إجابتها ، فمنع الإجابة هنا إجابة .

﴿ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان] المعنى : إذا توكلتَ على الحيِّ الذى لا يموت ، فآثار هذا التوكل أنْ يحميك من ذنوب العباد ، فهو وحده الذى يعلم ذنوبهم ، ويعلم حتى ما يدور فى أنفسهم .

ألم يقُل الحق لرسوله ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

فما زال القَوْلُ فى أنفسهم لم يخرج ، ومع ذلك أخبره الله به ، وكأن الحق سبحانه يُطمئن رسوله : مهما تآمروا عليك ، ومهما دبَّروا لك ، ومهما تكاتف ضدكَ جنودُ الإنس والجن ، فاطمئنْ لأن ربك عليم بالذنوب التى قد لا تدركها أنت ، ولا حيلةَ عندك لردِّها ، فيكفيك أن يعلم اللهُ ذنوبَ أعدائك .

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

والخبير : الذى يعلم خبايا الأمور ، حتى فى مسائل الدنيا الهامة نقول : نستدعى لها الخبير ؛ لأن المختص العادى لا يقدر عليها .

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

ثم ينقلنا الحق - تبارك وتعالى - إلى آية كونية ، تنضاف إلى الآيات السابقة ، والهدف من ذكر المزيد من الآيات الكونية أنه لعلَّها تصادف رِقَّة قلب واستمالة مواجيد ، فتعطف الخَلْق إلى الخالق ، وتُلفت الأنظار إليه سبحانه .

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) ﴾

البعض يظن أن خَلْق السموات والأرض شيء سهل ، وأعظم منه خَلْق الإنسان ، لكن الحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

فالإنسان يخلقه الله ، وقد يموت بعد يوم ، أو بعد مائة عام ، وقد تصيبه فى حياته الأمراض ، أمّا السموات والأرض ، فقد خلقها الله تعالى بهندسة دقيقة ، وقوانين لا تتخلف ولا تختل مع ما يمرُّ عليها من أزمنة ، وكأن الحق سبحانه يقول للإنسان : إن السموات والأرض هذه خلْقتى وصَنْعتى ، لو تدبرتَ فيها وتأملتَها لوجدتَها أعظم من خَلْقك أنت .

وقوله تعالى : ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٥٩) ﴾ [الفرقان] سبق أنْ تكلّمنا فى هذه المسألة وقلنا : إن جمهرة آيات القرآن تدل على أن الخَلْق تمَّ فى مدة ستة أيام إلا سورة واحدة تُشعر آياتها أن الخلق فى ثمانية أيام ، وهى سورة فصلت :

حيث يقول فيها الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ[1] فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي

---

(١) الدخان : يُطلق على ما يرتفع فوق النار من غازات لم يتم احتراقها ، وقد يطلق على البخار وما يشبهه من الغازات المتصاعدة ، والمقصود أن مواد النجوم كانت فى حالة غازية كالدخان ثم خلق منها السماوات [القاموس القويم ١/ ٢٢٤] .

كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ [فصلت]

وجملة هذه ثمانية أيام ، وكل مُجْمل يخضع للتفصيل إلا تفصيل العدد فيرجع للمجمل ، كيف ؟

الحق سبحانه يتكلم هنا عن خَلْق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم تكلَّم عن خَلْق الأرض في يومين ، وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام ، فالأربعة الأيام هذه تكملة لخلْق الأرض فهي تكملة لليومين ، كأنه قال في تتمة أربعة أيام ، فالأرض في يومين والباقي أكمل الأربعة . كما تقول : سِرْتُ إلى طنطا في ساعة ، وإلى الأسكندرية في ساعتين أي يدخل فيهما الساعة الأولى إلى طنطا ، فاليومان من الأربعة الأيام .

لكن ، كيف نُقدِّر هذا اليوم ؟ الله يخاطبنا باليوم الذي نعرفه ونعرف مدلوله ، فالمعنى : في ستة أيام من أيامكم التي تعرفونها . وإلاَّ لو كان المراد يوماً لا نعرفه نحن ، فسيكون لا معنى له ؛ لأننا لا نفهمه .

ولقائل أن يقول : كيف يستغرق الخَلْق كل هذه المدة والحق - تبارك وتعالى - يخلق بكُنْ ، وكن لا تحتاج وقتاً ؟ قالوا : فَرْق بين عملية الخَلْق وما يحتاجه المخلوق في ذاته .

فأنت مثلاً ، إنْ أردتَ أنْ تصنع كوباً من الزبادي تحضر اللبن مثلاً وتضع عليه خميرة الزبادي المعروفة المأخوذة من زبادي دسم سبق صُنْعه ، وتضعه في درجة حرارة معينة ، بعد هذه العملية تكون قد صنعت الزبادي فعلاً ، لكن هل يمكنك أن تأكل منه فَوْر الانتهاء

من صناعته ؟ لا ، بل لا بُدَّ أن تتركه عدة ساعات لتتفاعل عناصره ، فهل تقول : أنا صنعت الزبادى فى عدة ساعات مثلاً ؟

كذلك ، حين تذهب إلى (الترزى) لتفصيل ثَوْب مثلاً يقول لك : موعدنا بعد شهر ، فهل تستغرق خياطة الثوب شهراً ؟ لا ، إنما مدته عنده شهر .

فالحق - تبارك وتعالى - يفعل ويخلق دون معالجة ، وبالتالى دون زمن ؛ لأنه سبحانه يقول للشىء : كُنْ فيكون .

وقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٥٩)﴾ [الفرقان] سبق أن تكلمنا فى هذه المسألة . فاستوى تعنى : صعد وارتفع وعلا وجلس ، ونحن نُنزِّه الله تعالى عن استواءٍ يشابه استواء خَلْقه .

والاستواء هنا رمزية لتمام الأمر بما نعرفه فى عادة الملوك فى الجلوس على كرسى العرش ، حين يتم لهم الأمر ويستتبّ .

و ﴿الرَّحْمَـٰنُ .. (٥٩)﴾ [الفرقان] دليل على أن مسألة الخَلْق كلها تدور فى إطار الرحمانية ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩)﴾ [الفرقان] لأنه سبحانه خلق السموات والأرض وخلقنا ، ومع ذلك لا نعرف : كيف تم هذا الخَلْق ؟ ولن نستطيع أن نقف على تفصيل هذا الخَلْق ، إلا إذا أطلعنَا الخالق عليه ، وإلاَّ فهذا أمر لم نشاهده ، فكيف نخوض فيه ، كمن يقول : إن الأرض كانت قطعةً من الشمس ، ثم انفصلتْ عنها مع دوران الشمس .. إلخ هذه الأقوال .

لذلك الحق - تبارك وتعالى - يُحذِّرنا من سماع مثل هذه النظريات ؛ لأن مسألة الخَلْق لا تخضع للعلم التجريبى أبداً ، فيقول

سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] (٥١) ﴾ [الكهف]

إذن : سيوجد فى الكون مُضلون يقولون للناس مثل هذه الأقوال فى الخَلْق ، ويدَّعُون بها أنهم علماء يعرفون ما لا يعرفه الناس ، فاحذروهم فما شاهدوا عملية الخَلْق ، وما كانوا مساعدين لله تعالى ، فيطلعوا على تفاصيل الخَلْق .

لذلك تقوم هذه الأقوال فى خَلْق الإنسان وخَلْق السماء والأرض دليلاً على صدْق هذه الآية ، فما موقف هذه الآية - إذن - إذا لم تقل هذه الأقوال ؟

ومثال ذلك الذين يحلو لهم التعصب للقرآن الكريم ضد الحديث النبوى يقول لك أحدهم : حدِّثنى عن القرآن ، سبحان الله ، أتتعصَّب للقرآن ضد الرسول الذى بلَّغك القرآن ، وما عرفتَ القرآن إلا من طريقه ؟ يعنى (الواد ربَّانىّ) لا يعترف إلا بالقرآن . ونقول لمثل هذا الذى يهاجم الحديث النبوى : أنت صليتَ المغرب ثلاث ركعات ، فأين هذا من القرآن ؟

لذلك يقول النبى ﷺ : « يُوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان حراماً حرَّمْناه ، وإن ما حرَّم رسول الله كما حرَّم الله »[2] .

---

(١) أى : أعواناً مساعدين . وقال تعالى : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥) ﴾ [القصص] أى : سنقويك به على سبيل المجاز المرسل ، فتقوية العضد تقوية للإنسان كله . [القاموس القويم ١/ ٢٤] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٣٢) ، والترمذى فى سننه (٢٦٦٤) وابن ماجة فى سننه (١٢) ، والدارقطنى (٤/ ٢٨٦) فى سننه ، واللفظ للدارقطنى .

لمـاذا ؟ لأنِّى أقـول لكم من باطن قَـوْل الله تعـالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا.. ⑦﴾ [الحشر]

بالله ، لو لم يُوجَـد الآن مَنْ يقـول بهذا القـول ، فـماذا سـيكون موقف هذا الحديث ؟ وكيف لنا أن نفهمه ؟ لقد فضحهم هذا الحديث ، وأبان ما عندهم مـن غباء ، فـقد كان بإمكانهم بـعد أنْ عرفـوا حديث رسـول الله أنْ يُمسكوا عـن التعـصب للقـرآن ضد الحـديث النبـوى ، فيكون الحديث ساعتَها غير ذى معنى لكن هيهات .

نعـود إلى مـوضوعنا ، ونحن بـصدد الكلام عن خَلْـق السمـوات وخَلْق الأرض ، واسـتـواء الحق ـ تبـارك وتعـالى ـ علـى العـرش ، وهاتان المسـألتان لا تسـأل فيهـما إلا الله ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ⑤٩﴾ [الفرقان] لأنه وحده الذى يعلم خبايا الأمور ، وهذه أمور لم يطّلع عليها أحد فيخبرك بها .

وكلمة : (سأل) الإنسان لا يسأل عن شىء إلا إذا كان يجهله ، والسـؤال له مراحل : فـقد تجـهل الشىء ولا تهـتم به ، ولا تريد أن تعرفـه ، فأنت واحد من ضـمن الذين لا يعرفون ، وقـد تجهل الشـىء لكن تهـتم به ، فتـسأل عنه لاهتـمامك به ، فـمرَّة نقـول : اسأل به . ومرة نقول : اسأل عنه .

والمعنى : اسأل اهتـماماً به ، أى : بسبب اهتـمامك به اسأل عنه خبيراً ليعطيك ويخبرك بما تريد ، فهو وحده الذى يعرف خبايا الأمور ودقائقـها ، وعنده خبـر خَلْق السموات وخَلْق الأرض ، ويعلم مـسألة الاسـتواء على العـرش ؛ لذلك إنْ سألتَ عـن هاتين المسـألتين ، فـلا تسأل إلا خبيراً .

والذين قالوا فى قـوله تعالى : ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ⑤٩﴾ [الفرقان]

أى : ممَّنْ يعلم الكلام عن الله من أهل الكتاب نقول : لا بأسَ ؛ لأنه سيؤول إلى الله تعالى فى النهاية .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (٦٠) ﴾

نلحظ أن الحق - تبارك وتعالى - حينما ذكر الصفة الملزمة لأنْ تخضع له سبحانه لم يَقُلْ مثلاً : اسجدوا لله ، إنما ﴿ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ .. (٦٠) ﴾ [الفرقان] وأتى بالصفة التى تُعدِّى رحمانيته إليك ، فكان من الواجب أنْ تطيع ، وأن تخضع له . كما قُلْنا سابقاً : اجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن مُلْكه .

﴿ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ .. (٦٠) ﴾ [الفرقان] كأنهم لا يعرفون هذه الكلمة ، إنهم لا يعرفون إلا رحمن اليمامة .

وقولهم : ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا .. (٦٠) ﴾ [الفرقان] دليل على أن الامتناع عن السجود ليس للذات المسجود لها ، بل لمن أمر بالسجود ، كما سبق وأنْ قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] فكأنهم إنْ أمرهم الله بالسجود لسجدوا ، لكن كيف يأتى الأمر من الرسول خاصة ؟ وما ميْزته عليهم حتى يأمرهم ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) ﴾ [الفرقان] والنفور : الانفكاك عن الشىء بكُرْه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا[1] وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) ﴾

(١) البروج : مواقع النجوم بالسماء ومنازلها . [القاموس القويم ١/ ٦١] .

يعود السياق مرة أخرى لذكر آية كونية ؛ لأن الحق - تبارك وتعالى - يراوح بين آية تطلب منهم شيئاً ، وأخرى تلفتهم إلى قدرة الله وعظمته ، وهذا يدل على مدى تعنتهم ولجاجتهم وعنادهم ، وحرص الحق - سبحانه وتعالى - على لَفْتهم إليه ، والأخْذ بأيديهم إلى ساحته تعالى .

ولو شاء سبحانه لَسرَد الآيات الكونية مرة واحدة ، وآيات التكذيب مرة واحدة ، ولكن يُزاوج - سبحانه وتعالى - بين هذه وهذه لتكون العبرة أنفذ إلى قلوب المؤمنين .

قلنا : ﴿ تَبَارَكَ .. (٦١) ﴾ [الفرقان] يعنى : تنزّه ، وعَلاَ قدره ، وعَظُم خيره وبركته . والبروج : جمع بُرْج ، وهو الحصن الحصين العالى الذى لا يقتحمه أحد ، والآن يُطلقونها على المبانى العالية يقولون : برج المعادى ، برج النيل .. الخ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) ﴾ [البروج]

وقوله سبحانه : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ .. (٧٨) ﴾ [النساء]

والبروج : منازل فى السماء يحسب الناسُ بها الأوقات ، ويربطون بينها وبين الحظوظ ، فترى الواحد منهم أول ما يفتح جريدة الصباح ينظر فى باب « حظك اليوم » ، وقد دلَّتْ الآيات على أن هذه البروج جعلها الله لتُسهِّل على الناس أمور الحساب .

كما قال سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن]

وقال تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا .. (٩٦) ﴾ [الأنعام]

يعنى : بها تُحسب المواقيت ، فالشمس تعطيك المواقيت اليومية والليلية ، والقمر يدلُّك على أول كل شهر ؛ لأنه يظهر على جرْم معين ، وكيفية مخصوصة تُوضّح لك أول الشهر ومنتصفه وآخره ، ثم تعطيك الشمس بالظل حساب جزئيات الزمن .

ومعلوم أن فى السماء اثنىْ عَشَر بُرْجاً جمعها الناظم فى قوله :

حَمَلَ الثَّوْرُ جَوْزَةَ السَّرطَانِ وَرَعَى الليْثُ سُنْبُلَ الميزَانِ
عَقْرِبَ القَوْس جَدْى دَلْو وحُوت مَا عَرفنَا من أُمَّة السُّرْيَانِ

فهى : الحمَل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت . فأوّلها الحَمل ، وآخرها الحوت ، وكلُّ بُرْج يبدأ من يوم ٢١ فى الشهر وينتهى يوم ٢٠ .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) ﴾ [الفرقان] السراج هو المصباح الذى نشعله ليعطى حرارة وضوءاً ذاتياً ، والمراد هنا الشمس ؛ لأن ضوءَها ذاتىٌّ منها ، وكذلك حرارتها ، على خلاف القمر الذى يضىء بواسطة الأشعة المنعكسة على سطحه ، فإضاءته غير ذاتية ؛ لذلك يقولون عن ضوء القمر : الضوء الحليم ؛ لأنه ضوء بلا حرارة .

والعجيب أن سطح القمر - كما وجدوه - حجارة ، ولما أخذوا منه حجراً ليُجروا عليه بحوثهم فهلْ قَلَّ ضوء القمر ؟ لا لأن دائرته الكاملة هى التى تعكس إلينا ضوء الشمس وحين تأخذ منه حجراً يعكس لك ما تحته أشعة الشمس .

وفى موضع آخر ، يوضح الحق سبحانه هذه المسألة ، فيقول

تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. ﴿٥﴾﴾ [يونس] فالضياء هو الذى يأتى من الكوكب ذاتياً ، والنور هو انعكاس الضوء على جسم آخر ، فهو غير ذاتى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

عرفنا أن الليل : غياب الشمس عن نصف الكرة الأرضية ، والنهار مواجهة الشمس للنصف الآخر ، والليل والنهار متعاقبان ﴿خِلْفَةً ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان] يأتى الليل ثم يعقبه النهار ، كل منهما خَلْف الآخر ، وهذه المسألة واضحة لنا الآن ، لكن كيف كانت البداية عندما خلق الله تعالى الخَلْق الأول ، فساعتها ، هل كانت الشمس مواجهة للأرض أم غائبة عنها ؟

إنْ كان الحق سبحانه خلق الشمس مواجهةً للأرض ، فالنهار هو الأول ، ثم تغيب الشمس ، ويأتى الليل ليخلف النهار ، أما النهار فلم يُسبق بليْل . وكذلك إنْ كانت الشمس عند الخَلْق غير مواجهة للأرض ، فالليل هو الأول ، ولا يسبقه نهار ، وفى كلتا الحالتين يكون أحدهما ليس خِلْفة للآخر ، ونحن نريد أن تصدُقَ الآية على كليْهما .

إذن : لابد أنهما خِلْفة منذ الخَلْق الأول ؛ ذلك لأن الأرض ـ كما عرفنا ولم يَعُدْ لدينا شكٌ فى هذه المسألة ـ كروية ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما خلق الشمس والقمر الخَلق الأول كان المواجه منها للشمس نهاراً ، والمواجه منها للقمر ليلاً ، ثم تدور حركة الكون ، فيخلف أحدهما الآخر منذ البداية .

وهذه النظرية لا تستقيم إلا إذا قُلْنا بكروية الأرض ، وهذه يؤيدها قوله تعالى : ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ..(٤٠)﴾ [يس]

والمعنى أيضاً : ولا النهار سابق الليل ، لكن ذكر الليلَ ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الليل خُلِق أولاً ، لماذا ؟ لأن الزمن عندهم يثبت بليله ، كما يحدث مثلاً في الصوم ، فهل تصوم أولاً في النهار ثم ترى الهلال بالليل ؟ إنما ترى الهلال بالليل أولاً ، فكأن رمضان يبدأ يومه بليله .

وما دام الأمر كذلك فالليل سابقُ النهار عندهم ، وهذه قضية يعتقدونها ومُسلَّمة عندهم ، وجاء القرآن وخاطبهم على أساس هذا الاعتقاد : أنتم تعتقدون أن الليلَ سابقُ النهارِ يعني : النهار لا يسبق الليل ، نعم لكن : اعلموا أيضاً أن الليل لا يسبق النهار . إذن : المحصلة : لا الليلُ سابقُ النهار ، ولا النهار سابق الليل .

ولو قلنا بأن الأرض مسطوحة لَمَا استقام لنا هذا القول .

لكن أيّ ليل ؟ وأيّ نهار ؟ نهاري أنا ، أم نهار المقابل لي ؟ وكل واحد على مليون من الثانية يولد نهار ويبدأ ليل ؛ لأن الشمس حين تغيب عني تشرق على آخرين ، والظهر عندي يوافقه عصر أو مغرب أو عشاء عند آخرين .

إذن : كل الزمن فيه الزمن ، وهذا الاختلاف في المواقيت يعني أن نغمة الأذان (الله أكبر) شائعة في كل الزمن ، فالله تعالى معبود بكل وقت وفي كل زمن ، فأنت تقول : الله أكبر وغيرك يقول : أشهد أن لا إله إلا الله .. وهكذا .

وإنْ كان الحق - تبارك وتعالى - خلق الليل للسُّبات وللراحة ،

والنهار للسعى وللعمل ، فهذه الجمهرة العامة لكنها قضية غير ثابتة ، حيث يوجد من مصالح الناس ما يتعارض وهذه المسألة ، فمن الناس مَنْ تقتضى طبيعة عمله أن يعمل بالليل كالخبازين والحراس والممرضين .. إلخ .

فهؤلاء يُسمح لهم بالعمل بالليل والراحة بالنهار ، ولو لم يكُنْ لهؤلاء منفذ لقلنا : إن هذا الكلام متناقض مع كونيات الخَلْق ؛ لذلك يقول - سبحانه وتعالى - فى آية أخرى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٢٣)﴾ [الروم] فتراعى هذه الآية ظروف هؤلاء الذين يضطرون للعمل ليلاً ، وللراحة نهاراً .

وقوله تعالى : ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان] يعنى : يا مَنْ شغله نهار عمله عن ذكر ربه انتهزْ فرصة الليل ، ويا مَنْ شغله نوم الليل عن ذِكْر ربه انتهز فرصة النَّهار ، وذلك كقول النبى ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل »(١) .

فمَنْ فاته شىء فى ليله فليتداركه فى نُهاره ، ومَنْ فاته شىء فى نهاره فليتداركه فى ليله ، وإذا كان الله تعالى يبسط يده بالليل ويبسط يده بالنهار ، وهما مستمران ، فمعنى ذلك أن يده تعالى مبسوطة دائماً .

ومعنى ﴿يَذَّكَّرَ .. (٦٢)﴾ [الفرقان] يتمعّن ويتأمل فى آيات الله ، فى الليل وفى النهار ، كأنه يريد أن يصطاد لله نعماً يشكره عليها ، على خلاف الغافل الذى لا يلتفت إلى شىء من هذا ، فمن فضل الله علينا

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، وكذا أحمد فى مسنده (٣٩٥/٤ ، ٤٠٤) .

أن يُنبِّهنا إلى هذه النعم ، ويلفت نظرنا إليها ؛ لأننا أهل غفلة .

وقوله : ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان] أى : شكراً ، فهى صيغة مبالغة فى الشكر .

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ(١) قَالُوا سَلَامًا (٦٣)﴾

يعطينا الحق ـ تبارك وتعالى ـ صورة للعبودية الحقة ، ونموذجاً للذين اتبعوا المنهج ، كأنه ـ سبحانه وتعالى ـ يقول لنا : دَعْكُم من الذين أعرضوا عن منهج الله وكذَّبوا رسوله ، وانظروا إلى أوصاف عبادى الذين آمنوا بى ، ونفَّذوا أحكامى ، وصدَّقوا رسولى .

نقول : عباد وعبيد . والتحقيق أن (عبيد) جمع لعبد ، وأن (عباد) جمع لعابد مثل : رجال جمع راجل : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا .. (٢٧)﴾ [الحج] إذن : عبيد غير عبَاد .

وسبق أن تحدثنا عن الفَرْق بين العبيد والعباد ، فكلنا عبيد لله تعالى : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، فما دام يطرأ عليه فى حياته ما لا يستطيع أنْ يدفعه مع أنه يكرهه فهو مقهور ، فالعبد الكافر الذى تمرَّد على الإيمان بالله ، وتمرَّد على تصديق الرسول ، وتمرد على أحكام الله فلم يعمل بها .

فهل بعد أن ألفَ التمرد يستطيع أن يتمرد على المرض إنْ أصابه ؟ أو يستطيع التمرد على الموت إنْ حلّ بساحته ؟ إذن : فأنت

(١) الجهل : الطيش والسَّفه والتعدى بغير حق . والجهل أيضاً : ضد العلم وهو الخلو من المعرفة . ويتحدد معنى الجهل بما يناسب المقام . والمقصود بالجاهلين هنا : السفهاء . [القاموس القويم ١/ ١٣٤] .

عبد رغماً عنك ، وكلنا عبيد فيما نحن مقهورون عليه ، ثم لنا بعد ذلك مساحة من الاختيار .

أما المؤمن فقد خرج عن اختياره الذى منحه الله فى أن يؤمن أو يكفر ، وتنازل عنه لمراد ربه ، فاستحق أن يكون من عباد الله ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ ..(٦٣) ﴾ [الفرقان] فنحن وإنْ كنا عبيداً فنحن سادة ؛ لأننا عبيد الرحمن ؛ لذلك كانت حيثية تكريم الله لرسوله ﷺ فى الإسراء هى عبوديته لله تعالى ، حيث قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ..(١) ﴾ [الإسراء] ، فالعبودية هى علة الارتقاء .

فلما أخلص رسول الله العبودية لله نال هذا القُرْب الذى لم يسبقه إليه بشر .

لذلك وصف الملائكة بأنهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) ﴾[الأنبياء] وباستقراء الآيات لم نجد سوى آية واحدة تخالف فى ظاهر الأمر هذا المعنى الذى قُلْناه في معنى العباد ، وهى قوله تعالى فى الكلام عن الآخرة : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ..(١٧) ﴾ [الفرقان]

فقال للضالين (عبادى) وهى لا تُقال إلا للطائعين ، لماذا ؟ قالوا : لأن فى القيامة لا اختيارَ لأحد ، فالجميع فى القيامة عباد ، حيث انتفى الاختيار الذى يُميِّزهم .

والعلماء يقولون : إن العباد تُؤخَذ منها العبادية ، وأن العبيد تُؤخَذ منها العبودية : العبادية فى العباد أن يطيع العابد أمر الله ، وينتهى عن نواهيه طمعاً فى ثوابه فى الآخرة ، وخوفاً من عقابه فيها ، إذن : جاءت العبادية لأخذ ثواب الآخرة وتجنّب عقابها .

أما العبودية فلا تنظر إلى الآخرة ، إنما إلى أن الله تعالى تقدّم

بإحسانه على عبيده إيجاداً من عدم ، وإمداداً من عُدْم ، وتربية وتسخيراً للكون ، فالله يستحق بما قدّم من إحسان أن يُطاع بصرف النظر عن الجزاء فى الآخرة ثواباً أو عقاباً .

أما العبودة فهى : ألاَّ ينظر العبد إلى ما قدَّم من إحسان ، ولا ما أخّر من ثواب وعقاب ، وإنما ينظر إلى أن جلال الله يستحق أنْ يُطاع ، وإنْ لم يسبق له الإحسان ، وإنْ لم يأتِ بعد ذلك ثواب وعقاب .

وإن كانت العبودية مكروهة في البشر كما قال أحد الساسة[1] : متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ذلك لأن العبودية للبشر يأخذ السيد خيْر عبده ، أما العبودية لله تعالى فعزٌّ وشرف ، حيث يأخذ العبد خَيْر سيده ، فهى عبودية سيادة ، لا عبوديةَ قهر .

فحين تؤمن بالله يعطيك الله الزمام : يقول لك : إنْ أردت أنْ أذكرك فاذكرنى ، وفى الحديث القدسى : « مَنْ ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى نفسى ، ومَنْ ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم »[2] .

وإنْ كان - سبحانه وتعالى - يستدعيك إلى خَمْس صلوات فى اليوم والليلة ، فما ذلك إلا لتأنسَ بربك ، لكن أنت حر تأتيه فى أىِّ وقت تشاء من غير موعد ، وأنت تستطيع أن تحدد بَدْءَ المقابلة

(١) هو : أحمد عرابى بن محمد عرابى ، زعيم مصرى ، ممن تركت لهم الحوادث ذكراً فى تاريخ مصر الحديث ، ولد فى قرية « هرية رزنة » (عام ١٨٤١ م) من قرى الزقازيق بمصر ، جاور فى الأزهر سنتين ، ثم انتظم فى الجيش سنة (١٨٥٥م) وكان عمره ١٤ عاماً حتى بلغ رتبة « أميرالاى » فى أيام الخديوى توفيق . توفى ١٩١١ م عن ٧٠ عاماً . انظر (الأعلام للزركلى ١/١٦٨) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٥١ ، ٣٥٤ ، ٤٠٥) ، والبخارى فى صحيحه (٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥ ، ٧٥٣٧) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وقد شرح الشيخ الشعراوى رحمه الله هذا الحديث القدسى فى سلسلة « الأحاديث القدسية » (١/١٧-٢٥) بتحقيقنا .

ونهايتها وموضوعها .. إلخ ، فزمام الأمر فى يدك .

وقد تعلم سيدنا رسول الله خُلق الله ، فكان إذا وضع يده فى يد أحد الصحابة يُسلِّم عليه لا ينزع يده منه حتى يكون هو الذى ينزع يده من يد رسول الله(١) ، وهذا أدب من أدب الحق ـ تبارك وتعالى ـ إذن : فالعبودية لله تعالى عبودية لرحمن ، لا عبودية لجبار .

وأول ما نلحظ فى هذه الآية أنه تعالى أضاف العباد إلى الرحمن ، حتى لا نظن أن العبودية لله ذِلَّة ، وأن القرآن كلام رب وُضِع بميزان ، ثم يذكر ـ سبحانه وتعالى ـ صفات هؤلاء العباد ، صفاتهم فى ذواتهم ، وصفاتهم مع مجتمعهم ، وصفاتهم مع ربهم ، وصفاتهم فى الارتقاء بالمجتمع إلى الطُّهر والنقاء .

أما فى ذواتهم ، فالإنسان له حالتان هما محلُّ الاهتمام : إما قاعد ، وإما سائر ، ونُخرج حالة النوم لأنه وقت سكون ، أما حال القعود فالحركة محدودة فى ذاته ، والمهم حال الحركة والمشى ، وهذا هو الحال الذى ينبغى الالتفات إليه .

لذلك يوضح لنا ربنا ـ عز وجل ـ كيف نمشى فيقول : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا .. (٦٣) ﴾ [الفرقان]

يعنى : برفق وفى سكينة ، وبلين دون اختيال ، أو تكبُّر ، أو غطرسة ، لماذا ؟ لأن المشى هو الذى سيُعرِّضك لمقابلة مجتمعات متعددة ، وهذا الأدب الربانى فى المشى يُحدِث فى المجتمع استطراقاً إنسانياً يُسوِّى بين الجميع .

---

(١) أخرج أبو الشيخ الأصبهانى فى كتابه « أخلاق النبى ﷺ وآدابه » – ص ٣٦ طبعة الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٢ « عن أنس بن مالك قال : كان ﷺ إذا صافح رجلاً لم ينزع يدع من يده حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده ، ولا يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذى يصرف » .

وفى موضع آخر يقول تعالى فى هذه المسألة : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان] ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء]

وتصعير الخدِّ أنْ تُميله كِبْراً وبَطَراً وأصله (الصعر) مرض فى البعير يصيب عنقه فيسير مائلاً ، ومَنْ أراد أن يسير مُتكبِّراً مختالاً فليتكبر بشىء ذاتى فيه ، وهل لديك شىء ذاتى تستطيع أن تضمنه لنفسك أو تحتفظ به ؟

إنْ كنتَ غنياً فقد تفتقر ، وإنْ كنتَ قوياً صحيحاً قد يصيبك المرض فيُقعدك ، وإنْ كنتَ عزيزاً اليوم فقد تذلّ غداً . إذن : فكل دواعى التكبُّر ليستَ ذاتية عندك ، إنما هى موهوبة من الله ، فعلامَ التكبُّر إذن ؟!

لذلك يقولون فى المثل (اللى يخرز يخرز على وركه) إنما يخرز على ورك غيره ؟! وأصل هذا المثل أن صانع السروج كان يأتى بالصبى الذى يعمل تحت يده ، ويجعله يمدّ رجْله ، ويضع السرج على وركه ، ثم يأخذ فى خياطته ، فرآه أحدهم فَرَقَّ قلبه للصبى فقال للرجل : إنه ضعيف لا يتحمل هذا ، فإنْ أردتَ فاجعله على وركك أنت . كذلك الحال هنا ، مَنْ أراد أن يتكبّر فليتكبّر بشىء ذاتى فيه ، لا بشىء موهوب له .

والمتكبِّر شخص ضُرب الحجاب على قلبه ، فلم يلتفت إلى ربه الأعلى ، ويرى أنه أفضل من خَلْق الله جميعاً ، ولو استحضر كبرياء ربه لاستحى أن يتكبر على خَلْق الله ، فتكبُّره دليل على غفلته عن هذه المسألة .

لذلك يقول الناظم :

فَدَع كُلَّ طاغيةٍ للزمَان   فَإنَّ الزمَانَ يُقيم الصَّعَرْ

يعنى : سيرَى من الزمان ما يُقوِّم اعوجاجه ، ويُرغِم أنفه .

ومعنى ﴿ مَرَحًا.. ﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان] المرح : الفرح ببطر . والبطر : أنْ تأخذ النعمة وتنسى المنعم ، وتتنعَّم بها ، وتعصى مَنْ وهبك إياها ، إذن : المنهىّ عنه الفرح المصاحب للبطر ، وإنكار فضل المنعم ، أما الفرح المصاحب للشكر فمحمود ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا.. ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

وفي موضع آخر يُعلِّمنا أدب المشى ، فيقول : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ.. ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان]

وقالوا : إن المراد بالمشى الهَوْن ، هو الذى يسير فيه الإنسان على سجيته دون افتعال للعظمة أو الكِبْر ، لكن دون انكسار وذِلّة ، وسيدنا عمر - رضى الله عنه - حينما رأى رجلاً يسير متماوتاً ضربه ، ونهاه عن الانكسار والتماوت فى المشية ، وهكذا فمِشْية المؤمن وَسَط ، لا متكبر ولا متماوت متهالك .

ثم تتحدث الآية بعد ذلك عن صفات عباد الرحمن وعلاقتهم بالناس : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا.. ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان] والجاهل : هو السَّفيه الذى لا يزن الكلام ، ولا يضع الكلمة فى موضعها ، ولا يدرك مقاييس الأمور ، لا فى الخُلُق ولا فى الأدب .

وسبق أن فرَّقْنا بين الجاهل والأمىّ : الأمىّ هو خالى الذهن ، ليس عنده معلومة يؤمن بها ، وهذا من السهل إقناعه بالصواب . أما الجاهل فعنده معلومة مخالفة للواقع ؛ لذلك يأخذ منك مجهوداً فى إقناعه ؛ لأنه يحتاج أولاً لأن تُخرج من ذهنه الخطأ ، ثم تُدخل فى قلبه الصواب .

والمعنى : إذا خاطبك الجاهل ، فحذار أن تكون مثله فى الردّ عليه فتَسْفَه عليه كما سَفهَ عليك ، بل قرِّعه بأدب وقُلْ ﴿ سَلامًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان] لتُشعره بالفرقِ بينكما .

والحق - تبارك وتعالى - يُوضِّح فى آية أخرى ثمرة هذا الأدب ، فيقول : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

وما أجملَ ما قاله الإمام الشافعى[1] فى هذا المعنى :

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلا تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ[2]
فَإِنْ كَلَّمْتَهُ فَرَّجْتَ عَنْهُ ... وَإِنْ خَلَّيْتَهُ كَمَدًا يَمُوتُ

فإن اشتد السفيه سفاهة ، وطغى عليك وتجبر ، فلا بُدَّ لك من رَدِّ العدوان بمثله ؛ لأنك حلُمتَ عليه ، فلم يتواضع لك ، وظنَّ حلْمك ضعفاً ، وهنا عليك أن تُريه الفرق بين الضعف وكرم الخُلَق ، كالشاعر[3] الذى قال :

صَفَحْنَا عَنْ بنى ذُهْلٍ ... وَقُلْنَا القَوْمُ إخْوَانُ
عَسَى الأيامُ أنْ يُرْجِعْنَ قَوْماً كالذى كَانُوا
فَلما صرَّح الشَّرُّ فَأمْسَى وَهْوَ عُرْيَانُ
ولم يَبْقَ سِوَى العُدْوانِ دنَّاهُمْ كَمَا دَانُوا
مشَيْنا مَشْيَةَ الليْثِ غَدا والليثُ غَضْبانُ

---

(١) هو : محمد بن إدريس الشافعى المطلبى ، أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة ، صاحب المذهب الشافعى ، وإليه نسبة الشافعية ، ولد فى غزة بفلسطين (عام ١٥٠ هـ) . زار بغداد مرتين ، وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ فتوفى بها (عام ٢٠٤ هـ) عن ٥٤ عاماً ، وقبره معروف بالقاهرة . [الأعلام للزركلى ٦/٢٦] .

(٢) هذا البيت ذكره أبو الحسن الماوردى فى « أدب الدنيا والدين » (ص ٢٢٦) ، ولكن عزاه لعمرو ابن على . وانظر : ديوان الإمام الشافعى - طبعة مكتبة ابن سينا ١٩٨٨ ص ٣٨ ، فقد ورد فيه هذان البيتان .

(٣) هو : شهل بن شيبان بن زمَّان الحنفى ، الشهير بالفنْد الزِّمَّانى ، من بنى بكر بن وائل ، شاعر جاهلى ، كان سيد بكر فى زمانه ، وفارسها وهو من أهل اليمامة . شهد حرب بكر وتغلب وقد ناهز عمره المئة . توفى نحو ٧٠ ق هـ . وسُمِّى الفند لعظم خلْقته . (الأعلام ٣/١٧٩) .

بضَرْب فيه توهينٌ وتخضيعٌ وإقْرانُ
وطَعْن كفم الزِّق[1] غدا والزِّق مَلآنُ
وفى الشرِّ نجاةٌ حينَ لاَ يُنجيك إحْسَانُ
وبعْضُ الحلْم عنْد الجهْل للذِّلة إذْعَانُ

وللإمام على كرَّم الله وجهه :

إذَا كُنْتُ مُحتاجاً إلى الحلْم إنّنى إلى الجهْل فى بَعْضِ الأحَايين أحْوجُ
ولِي فَرسٌ للحلْم بالحلْم مُلجَمٌ ولِي فرَسٌ للجَهْل بالجهْل مُسْرَجُ
فَمَنْ رَامَ تَقْويمى فإنِّى مُقوِّمٌ ومَنْ رَامَ تَعْويجى فَإنِّى مُعوَّجُ

ومعنى : ﴿ **قَالُوا سَلامًا** (٦٣) ﴾ [الفرقان] قالوا : المراد هنا سلام المتاركة ، لا سلام الأمان الذى نقوله فى التحية (السلام عليكم) فحين تتعرَّض لمن يؤذيك بالقول ، ويتعدى عليك باللسان تقول له سلام يعنى : سلام المتاركة .

وبعض العلماء يرى أن كلمة ﴿ **قَالُوا سَلامًا** (٦٣) ﴾ [الفرقان] هنا تعنى المعنيين : سلام المتاركة ، وسلام التحية والأمان ، فحين تحلُم على السَّفيه فلا تُجَاريه تقول له : لو تماديتُ معك سأوذيك ، وأفعل بك كذا وكذا ، فأنت بذلك خرجتَ من سلام المتاركة إلى سلام التحية والأمان .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ** (٥٥) ﴾ [القصص]

ألم يقُلْ إبراهيم ـ عليه السلام ـ لعمه آزر لما أصرَّ على كُفْره :

---

(١) الزق : السقاء ، وهو كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه ، وهو من الجلد . [لسان العرب ـ مادة : زقق] .

﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي .. (٤٧) ﴾ [مريم]

والمعنى : لو وقفتُ أمامك لربما اعتديتُ عليك ، وتفاقمتْ بيننا المشكلة .

وبعد أن تناولتْ الآيات حال عباد الرحمن في ذواتهم ، وحالهم مع الناس ، تتحدث الآن عن حالهم مع ربهم :

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) ﴾

والبيتوتة تكون بالليل ، حين يأوى الإنسان إلى بيته بعد عناء اليوم وسَعْيه ، وبعد أن تقلَّب فى ألوان شتَّى من نِعَم الله عليه ، فحين يأوى إلى مبيته يتذكر نِعَم الله التى تجلَّتْ عليه فى ذلك اليوم ، وهى نِعَم ليست ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله ؛ لذلك يتوجَّه إليه سبحانه بالشكر عليها ، فيبيت لله ساجداً وقائماً .

كما قال سبحانه : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ .. (٩) ﴾ [الزمر]

وقال سبحانه : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ[1] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]

لكن ، أيطلبُ الله تعالى منَّا ألاَّ نهجعَ بالليل ، وقد قال فى آية أخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) ﴾ [النبأ]

قالوا : ليس المراد قيام الليل كله ، إنما جزء منه حين تجد عندك النشاط للعبادة ، كما قال الحق سبحانه وتعالى فى خطاب النبى ﷺ :

---

(١) الأسحار : جمع سَحَر ، وهو الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر . [القاموس القويم ١/٣٠٥] .